آخر الأخبار لحظة بلحظة إلى جوالك
أرسل N أو ن VIVA 55665 | WATANIYA 1422 | ZAIN 98938
لنتواصل Alrai.np @AlraiMediaGroup

الإسلام والمسيحية من التقابل إلى... التحاور

الفيلم المسيء يعكس موروثاً تقليدياً يعود إلى أزمة العلاقة التاريخية بين الطرفين

| بيروت - من ريتا فرج |

في اللحظة التي كان يطلّ البابا بينيديكتوس السادس عشر على مسيحيي الشرق من لبنان بإرشاد رسولي يدعو للتأسيس الى حوار الاديان على أُسس لاهوتية ترتبط بالايمان، ويحضّ على التلاقي بين الديانات الابراهيمية، تسلّل «خلسة» عبر الـ «يوتيوب» فيلم «براءة المسلمين» المسيء لرسول الاسلام صلّى الله عليه وسلّم.

التزامن، مصادفة كان ام «مؤامرة»؟! فقد شكل حدثاً بالغ الرمزية يؤشر الى التطور الايجابي التراكمي في نظرة الكاثوليكية الى الاسلام من جهة وإستمرار بعض الاصوات في الاتجاه المعاكس من جهة اخرى، وهو الامر الذي ضاعف من «غرابة» الفيلم المسيء للإسلام ومن إستهجانه، وتالياً التعاطي معه وكأنه «ظاهرة معزولة».

لا يعكس الفيلم الذي أثار ردات فعل إسلامية متفاوتة في طبيعتها، رأي السواد الأعظم من الغرب تجاه الإسلام، وهو الذي استنكر هذا العمل «المثير للإشمئزاز» كما وصفته وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون، إنما يندرج في خانة وجود اتجاهات فردية او اكثر من ذلك احياناً تنظر الى الدين الإسلامي من موقع آخر قطع معه الغرب الكاثوليكي، أقله منذ مجمع الفاتيكان الثاني العام 1965 الذي طالب بالحوار بين المسيحية والاسلام، وأثنى على الاسلام كدين، وأدخل المسلمين في الدائرة الايمانية التوحيدية، وأسف لما سبق من خلاف بين الديانات، داعياً الى القطع مع الماضي. وهذا التكثيف للتلاقي بين الديانات وجد من يقابله في العالم العربي، حيث أسس العاهل السعودي «مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز العالمي للحوار بين أتباع الأديان والثقافات» وذلك بعدما التقى البابا بينيديكتوس السادس عشر العام 2007، في زيارة تاريخية هي الأولى من نوعها لملك سعودي للفاتيكان.

وفي موازاة المبادرة السعودية، لم يكن الأزهر بعيداً عن محاولات تجسير العلاقات بين الإسلام والمسيحية، فعلى مدار الاعوام الماضية عُقدت اجتماعات سنوية بين ممثلين من الأزهر والفاتيكان، وذلك قبل أن يدلي الرئيس الأميركي باراك أوباما بخطبةٍ شهيرة في جامعة القاهرة العام 2009 سُمّيت بـ «البداية الجديدة» وجّه خلالها رسالة إلى المسلمين.

الجذور التاريخية

فيلم «براءة المسلمين» الذي رفضه الغرب الرسمي ودانه الفاتيكان يعبّر ولو في شكل جزئي عن موروث تقليدي يعود الى أزمة العلاقة التاريخية بين المسيحية والإسلام قبل أن تتضح معالم الصورة الجديدة بين الطرفين.

وقد نظر الغرب الى الاسلام كما ذهب الباحث التونسي هشام جعيط وفقاً لرؤيتين: رؤية العالم الشعبي، ورؤية العالم المدرسي. الأولى تغذت من الحروب الصليبية، والثانية من المواجهة الإسلامية المسيحية في إسبانيا، واحدة انتشرت على المستوى الخيالي، والأخرى على المستوى العقلاني. وكان الأدب الشعبي في أوروبا كما يلحظ جعيط ينظر الى المسلمين كوثنيين، إلاّ أن هذه الرؤية المدرسية اعترفت بتأثيرات الفلسفة الإسلامية على التطور المعرفي في أوروبا، وبقي المحرّك الحضاري للاسلام مرفوضاً. لكن الدراسات التي أعقبت هذه المرحلة أقرت بالدور الريادي الذي دشّنه الاسلام لا سيما لجهة نقل الفلسفة اليونانية وتعريبها وتفسيرها، والتي تلقفها الغرب وجعلها مدماكاً فكرياً.

التصورات السابقة التي تكوّنت في أوروبا عن الإسلام تعود أيضاً إلى خلفية التفسير المسيحي الشرقي السابق للعقيدة الإسلامية، وتُعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي أولى الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام، وقد رفض الاعتراف بنبوة النبي محمد (صلعم)، وبأن القرآن كلمة الله المنزلة، رغم تأكيده التوافق بين المسيحية والإسلام في العقائد الأساسية ومن أهمها الإيمان بالله الواحد، لكن هذا التفسير التقليدي اختلف في شكل جذري بعد مجمع الفاتيكان الثاني.

المتغير المهم الذي كان سياسياً في الدرجة الأولى، وليس عقدياً أو إيمانياً، أتى بعد إنتهاء الحرب الباردة، اذ ساد انطباع بان السياسات الغربية راحت تبحث عن «عدو إفتراضي» وجدته في الإسلام، وتعالت الأصوات في أميركا وأوروبا تزعم «اَلمسلمون قادمون، المسلمون قادمون» وهذا ما عبّر عنه دانييل بابيس في إحدى مقالاته، حيث قرع جرس الانذار من التمدد الديموغرافي الاسلامي في الغرب.

وفي مقالة تحت عنوان «جذور الغضب الإسلامي» نشرها عميد الاستشراق برنارد لويس العام 1990 جاء فيها إن «المواجهة المقبلة للغرب ستأتي حتماً من العالم الإسلامي، وعلى إمتداد الدول الإسلامية من المغرب إلى باكستان سيبدأ صراع من أجل نظام عالمي جديد».

وفي موازاة الحرب المفترضة بين الإسلام والغرب التي أسس لها كل من لويس وصامويل هنتغتون (صاحب كتاب صدام الحضارات)، قلّل فرانسيس فوكوياما، أحد أبرز منظّري مرحلة ما بعد إنهيار الاتحاد السوفياتي من الخطر الإسلامي تجاه الغرب قائلاً «بالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في تجدّده الحالي، إلاّ أن هذا الدين لا يبدو أنه يمارس أي جاذبية خارج الأصقاع التي كانت إسلامية ثقافياً منذ بداياتها».

وهكذا يظهر ان المفكرين الغربيين المعاصرين والسابقين، ليسوا كتلة واحدة، حتى ان مقارباتهم للاسلام تفاوتت بين النظرة الايجابية والنظرة السلبية، وهناك الكثير من الكتّاب تحديداً في مرحلة ازدهار حركة الاستشراق، قدموا دراسات علمية جدية عن التراث الاسلامي، وكشفوا للعرب والمسلمين أهمية هذا التراث، فكان الاوروبي أول من اكتشف على سبيل المثال أهمية العلاّمة ابن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة والمنظّر لتقدم الأمم وتراجعها.

ولا يمكن التغاضي عن النتاج الفكري الذي قدمه بعض المستشرقين من أمثال لويس ماسينيون المستشرق الفرنسي عاشق التصوف الإسلامي وكذلك جاك بيرك المستشرق الفرنسي الذي أتقن العربية وترجم القرآن الكريم لمدة 10 أعوام، وطالب بالحوار بين الثقافتين، الأوروبية المسيحية والعربية الإسلامية، وهو الذي راهن على تحول منطقة البحر المتوسط إلى «بحيرة للمعنى» من خلال إعادة بناء الشراكة المتوسطية الأوروبية . العربية والحوار الديني المسيحي . الإسلامي.

ووسط الغضبة الاسلامية التي فجّرها فيلم «براءة المسلمين» توالت الردود الغربية المستنكرة، إذ دان الفاتيكان «الاهانات والاستفزازات» لمشاعر المسلمين وكذلك اعمال العنف الناتجة عنها، وذلك غداة الهجوم على القنصلية الاميركية في ليبيا الذي قتل خلاله السفير الاميركي وثلاثة موظفين آخرين احتجاجاً على الفيلم. وقال المتحدث باسم الفاتيكان فدريكو لومباردي ان «التبعات الخطيرة للاهانات والاستفزازات غير المبررة لمشاعر المؤمنين المسلمين تظهر مرة جديدة بوضوح في هذه الايام».

ورداً على موقف الكنيسة الكاثوليكية وجهت جامعة الأزهر شكرها الى الفاتيكان لدعوته الى احترام الكتب المقدسة والاديان. وفي مقابلة مع وكالة الانباء الايطالية اندكرونوس، اشاد مستشار شيخ الازهر للحوار بين الاديان محمود عزب «بأي جهة تنهض للدفاع عن الحقائق واحترام الاديان»، في اشارة الى موقف المتحدث باسم الفاتيكان الاب فدريكو لومباردي.

ووصفت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون فيلم «براءة المسلمين» بأنه مثير للإشمئزاز، لكنها أكدت في الوقت عينه أنه لا يمكن لأي أفلام أياً كانت أن تبرر أعمال العنف. وقالت: «إن هذا الفيلم مثير للإشمئزاز ويستحق كل عبارات الإدانة والإستنكار ولا يمتّ للحكومة الأميركية. إنها محاولة دنيئة لإهانة المشاعر الدينية للناس، غير أن سلطات الولايات المتحدة لن تقوم بمنع الأميركيين من التعبير عن وجهات نظرهم مهما كانت».

ومن أجل الإضاءة على تداعيات فيلم «براءة المسلمين» حملت «الراي» هذا الملف الى كل من: الأمين العام للجنة الوطنية المسيحية . الإسلامية للحوار الدكتور محمد السماك والأب البروفسور يوسف مونّس.

حكاية «الإسلاموفوبيا»

على مدار أقل من عشرة اعوام تكررت محاولات التعرض لمقدسات المسلمين ودائرتهم الايمانية، بدءاً من الرسوم الدنماركية، مروراً بتمزيق القرآن (القس تيري جونز) وصولاً الى فيلم «براءة المسلمين» الذي أثار نقمة الشارع الإسلامي الذي ذهب بعضه الى حد التعبير العنفي (بالقتل والحرق)، وتتابعت حلقاته مع اختيار رئيسة تحرير «نيوزويك . دايلي بيست» الأميركية، تينا براون، غلافاً للمجلة تحت عنوان «غضب المسلمين»، تضمن رسماً يظهر فيه رجلان ملتحيان بملامح تشي بالعصبية والغضب، قبل ان تنشر مجلة «شارلي ايبدو» في التاسع عشر من سبتمبر رسوماً مسيئة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وصوراً كاريكاتورية ساخرة تعكس ردود الأفعال الغاضبة من الفيلم وقد تضمّنت الصفحة الأولى رسماً يظهر يهودياً أرثوذكسياً يقود كرسياً مدولباً يجلس عليه رجل مسلم مع عبارة «السخرية ممنوعة».

وجاء هذا «التمادي» بين الفعل وردّ الفعل ليعيد الى الواجهة خوف المسلمين على ديانتهم ورموزها ومخاوف الغرب منهم وهو ما كان اصطُلح على تسميته بـ «الإسلاموفوبيا».

ومصطلح الاسلاموفوبيا أو «رهاب الإسلام» لفظ حديث نسبياً استُخدم العام 1976، لكن استعماله بقي نادراً في الثمانينات وبداية التسعينات من القرن العشرين. ثم انتشر المصطلح في شكل سريع بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر العام 2001. وقد انتقل مصطلح معاداة الإسلام أو الخوف من الإسلام من اللغة الانكليزية إلى لغات العالم المختلفة من دون استثناء. وترجع أولى محاولة تعريف هذا المصطلح إلى العام 1997 عندما عرّفه البريطاني رونيميد تروست في تقريره «الإسلاموفوبيا العداء غير المبرر للإسلام» بأنه الخوف أو الكراهية تجاه كل أو معظم المسلمين. وأول من استعمل اللفظ عند الكتّاب الفرنسيّين كان ماليه إميل Mallet Emile في مقالة تحت عنوان «ثقافة ووحشية» نشرها في جريدة Le Monde الفرنسية العام 1994، إذ تحدّث عن «صنف من الإسلاموفوبيا الزّاحفة».

وهناك جملة من الأسباب ساهمت في نمو الاسلاموفوبيا في بعض الدول الغربية: أولها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وثانيها انتشار الحركات الجهادية منذ الثمانينات والتي وصلت الى ذروتها مع ظهور تنظيم «القاعدة»، وثالثها وقوع التفجيرات الانتحارية في عدد من الدول الاوروبية والعربية.

«القنبلة الديموغرافية»... تقلق الأوروبيين

الإسلام أسرع الديانات نمواً في أوروبا وعدد «المسلمين» في تزايد مستمر

شكل انتشار المسلمين في الغرب كقوة ديموغرافية تحافظ على هويتها الدينية والثقافية عاملاً مقلقاً لبعض الاوروبيين. فماذا تقول الأرقام؟

يُعتبر الإسلام أحد أكبر الديانات في العالم، ويعدّ ثاني دين من حيث عدد معتنقيه، إذ قُدر عدد المسلمين طبقاً لاحصاءات صادرة عن «مركز الأبحاث الأميركي بيو» العام 2009 بنحو 1.57 مليار نسمة أي ما نسبته 23 في المئة من عدد السكان في العالم، واعتبر المركز أن الإسلام أسرع الديانات نمواً في أوروبا، بسبب عامل الهجرة وارتفاع معدلات المواليد ما أدى الى تضاعف عدد المسلمين في القارة العجوز الى ثلاث مرات خلال الـ 30 عاماً الماضية. ووفقاً لدراسة احصائية أجرتها مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي العام 2007 توصلت الى أن الاسلام من أكثر الديانات نمواً بمعدل (1.84 في المئة) مقابل العقيدة البهائية (1.7 في المئة)، والهندوسية (1.52 في المئة)، والمسيحية (1.32 في المئة). هذا النمو دفع المونسنيور «فيتوريو فورمينتي» الى القول في مقابلة مع صحيفة الفاتيكان (رومانو L) «للمرة الأولى في التاريخ يتعدى الإسلام الكاثوليكية ويكون أكبر ديانة في العالم... إن الكاثوليك يمثلون 17.4 في المئة من سكان العالم وهي نسبة مستقرة بينما المسلمون يمثلون 19.2 في المئة».

ووصل العدد الاجمالي للمسلمين في أوروبا العام 2007 الى نحو 53 مليون نسمة، بينهم 16 مليوناً في الاتحاد الأوروبي. والمناطق ذات الغالبية المسلمة في أوروبا هي: ألبانيا، وكوسوفو، وأجزاء من البوسنة والهرسك، وبعض المناطق الروسية في شمال القوقاز ومنطقة الفولغا التي يسيطر عليها المسلمون، السنجق نوفي بازار وينقسم بين صربيا والجبل الأسود. وهي تتألف في الغالب من الأوروبيين الأصليين من المؤمنين بالدين الإسلامي، الذي تعود تقاليده لمئات السنين، وتُعدّ دولة تركيا وأذربيجان وكازاخستان كذلك من الدول ذات الغالبية المسلمة، ويُعتبر السكان المسلمون الذين يعيشون في أوروبا الغربية في المقام الأول للشعوب الذين هاجروا إلى القارة الأوروبية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي خلال أو بعد العام 1950.

وإذا أخذنا فرنسا كمثال نجد أن معدلات الانجاب فيها وصلت الى 1.8 في المئة مقابل 8.1 في المئة عند المسلمين. وتبلغ نسبة السكان المسلمين تحت سن العشرين في المدن الكبيرة مثل «باريس» و«نيس» و«مرسيليا» 30 في المئة علماً أن تلك النسبة يتوقع أن ترتفع إلى 45 في المئة بحلول العام 2027، ما يعني أن خُمس سكان فرنسا خلال 39 سنة فقط سيكونون من المسلمين. أما في بريطانيا فقد ارتفع عدد المسلمين فيها خلال الثلاثين عاماً الماضية من 82 ألفاً إلى 2.5 مليون مسلم بزيادة مقدارها 30 ضعفاً.

أما في هولندا اليوم فإن 50 في المئة من المواليد الجدد هم من المسلمين، وهذا يعني أن نصف سكانها سيكونون من المسلمين خلال 15 سنة. وفي روسيا اليوم هناك أكثر من 23 ملايين مسلم يشكّلون خُمس إجمالي سكانها، ومن المتوقع أن يبلغ المسلمون ما نسبته 40 في المئة من تعداد الجيش الروسي خلال سنوات قصيرة مقبلة. وفي بلجيكا اليوم فإن 25 في المئة من السكان و50 في المئة من المواليد الجدد من المسلمين. وقد أفادت حكومة الاتحاد الأوروبي بأن ثلث المواليد في أوروبا سيكونون من المسلمين بحلول العام 2025.

وبينما كان عدد المسلمين في الولايات المتحدة 100 ألف مسلم العام 1970 فقد وصل إلى 9 مليون مسلم في العام 2008. وأشارت عملية مسح حديثة صادرة عن مركز الأبحاث الاجتماعية في «جامعة جورجيا» الأميركية، إلى أن الإسلام أسرع الأديان انتشاراً في الولايات المتحدة اليوم، وبلغ عدد المساجد في أميركا ما يزيد على 1209 مساجد، بُني أكثر من نصفها خلال الاعوام العشرين الماضية.

وبحسب قناة «إن بي سي» الأميركية فإن 20000 أميركي يعتنقون الإسلام سنوياً، وأن 25 في المئة من مسلمي الولايات المتحدة هم من المسلمين الجدد الذين اعتنقوا الإسلام. أما في بريطانيا فتشير بعض الارقام الى وصول حالات اعتناق الإسلام إلى 10000 - 20000 سنوياً.

واستناداً الى إحصائية جديدة صادرة العام 2011 عن مركز بيو يُشكّل المسيحيون نحو 76.2 في المئة من سكان أوروبا وتبلغ نسبة المسلمين في أوروبا 7.2 في المئة.

وأوضحت دراسة صادرة عن منظمة (عدالة للجميع ضد التمييز) المتخصصة في الدفاع عن الأقليات في العالم أن عدد المسلمين في أوروبا في تزايد مستمر، وأن دورهم وتأثيرهم في مجتمعاتهم تزايد في شكل ملحوظ خلال الأعوام العشرة الأخيرة، حيث أصبح الإسلام الدين الثاني والمعترف به رسمياً من السلطات الرسمية في الدول الأوروبية. وذكرت الدراسة أن عدد المسلمين في فرنسا هو الأكبر من بين دول أوروبا الغربية، حيث يبلغ عددهم قرابة خمسة ملايين مسلم، وتلي فرنسا في كثافة المسلمين ألمانيا، حيث يبلغ عدد المسلمين ما يزيد على أربعة ملايين نسمة. وأضافت أن عدد المسلمين في بريطانيا يصل إلى نحو ثلاثة ملايين مسلم متواجدين ومؤثرين في جميع القطاعات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، كما أن المسلمين ممثَّلون في الحكومة وفي جميع المجالس التمثيلية الرئيسية، بما فيها مجلس اللوردات، حيث تجلس سيدة من أصول باكستانية. واستنتجت الدراسة أن أقلّ المجتمعات الأوروبية قبولا للإسلام والمسلمين اليوم هي اليونان، تليها سلوفينيا، حيث إنها البلد الأوروبي الوحيد الذي لا توجد فيه مساجد رسمية للمسلمين.